حلاق أنطاكية . . !!

بقلم الاستاذ نقولا شكرى

لو أنه كان من الممكن أن تجتمع لدى المرء دفعة واحدة كل ذكريات حياته ـ سواء أكانت هذه الحياة عادية ساذجة ـ أم مفعمة بالحوادث ، ما تألف من مجموعة هذه الذكريات شيء يمكن أن يجعل الإنسان كياناً على حدة ليس كسائر الناس ؛ ولعل الروائيين حين تعمدوا خلق هذا الشذوذ فى حياة الانسان ، أرادوا أن تستحيل صور الحياة الدنيا ، إلى مثل من اختراع الخيال المحض ، وليس من ذكريات الحياة ما لا يشترك فيه الناس اشتراكاً ظاهراً .

وكأنى بشاعر عبقرى مثل (ديموسيه) ، حين يستخرج شغاف قلبه بارزة مكشوفة ، لكى يحدث الناس عن ذكريات حياته ، لا يختلف عن طير البحر الذى يقذف بمهجته لصغاره حين يعز عليه وجود الغذاء ، ولكن (شكسبير) كان أيضاً شاعراً عبقرياً ، حين بلغ أوج المجد المسرحى عن طريق الحرفة الحقيرة ، التى بقيت مقترنة باسمه إلى بدء القرن التاسع عشر .

ولقد قال (فيغارو) الحلاق الذى اختلقته مخيلة (بومارشيه) لمحدثه النبيل : « لا تحسبنى ياسيدى حلاقاً عادياً من أهل القرى ، لا أدرى من أمور الدنيا غير تحريك الموسى ! » .

وما كان (فيغارو) حلاقاً عادياً فى اشبيلية ، لا لأن(بومارشيه)أراد أن يجعله مصدر هداية ورشد ، كما جعل (هوغو) شخصية (هرنانى) الوضيعة ، ينبوع كرم ونبل ، وإنما يتفق ـ فى الغالب ـ أن يكون الحلاق لبقاً ، وصاحب نادرة وأقوال مستفارنة ؛ ومنذ عهد روما وأثينا ، كانت حوانيت الحلاقين ملتقى أهل الفراغ من المتفارفين رواة الأخبار .

وكان الشاعر (هوراس) إذا أراد أن يصف شيئاً بالذيوع والاشتهار قال : إنه ذاع فى كل بيوت الحلاقة ، كأن هذه الطائفة هى العمدة فى إذاعة الأخبار ؛ ومن دأب الحلاق فى الحقيقة أن يكون على بينة مما يجرى فى المدينة ، يظل أثناء أداء مهمته يتحدث إلى زبائنه

عن الأمور المختلفة،ومن هنا كان الحلاق ثرثاراً ، حتى إن بعضهم لا يستطيع ان يؤدى مهمته إلا إذا أقسم لزبائنه « آليت ألا أتكلم حتى أنتهى » .

غير أن التاريخ الذى جعل هذه الطائفة موضوع سخرية مرة ، لاتصافها بالثرثرة ؛ روى - مع ذلك - أن (بطرس لابروس) حلاق الملك (سان لويس) تولى منصب الوزارة لعهد (فيليب الجرىء) ، وأن المعلم (أوليفيه القزم) حلاق (لويس الحادى عشر) ، كان صفياً لذلك الملك وكاتماً لأسراره !

أما المثل الحقيقى الذى لم يبلغه التاريخ من أسماء الحلاقين ، فهو لعمرى ذلك الكائن الحى الذى ما زالت تحفظه الذاكرة منذ نيف وعشرين سنة ؛ وتحفظه كما هو لم يطرأ عليه أى تطور منذ شهدناه لأول مرة فى بعض أحياء أنطاكية ، ذلك الموطن المقدس الذى كان يطلق عليه القدماء اسم « عروس المشرق » ، وكانت لنا وقتئذ فرصة أردنا أن نبعث فيها ذكريات الصبا ، ذلك الموطن الذى تألفه الروح ويعمر حبه القلب ، وإن شغلتنى عنه أعظم المواطن .

وطنى إن شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

هذا المثل ! هل نصفه بأنه حلاق أنطاكية ، كما وصف (بومارشيه) بطل روايته « بحلاق اشبيلية » اعتقاداً أنه :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد ! ؟

ولكن ، أين أنفة (فيغارو) الذى كان يتقدم فى الصالونات بأنه الحلاق المشهور ، ويستنكر أمام محدثيه أنه حلاق ، أو على الأقل حلاق عادى ! ؟

وقد روى التاريخ أن (ليسينوس) حلاق (أوغسطس قيصر) ، شيد له قبيل وفاته ضريحاً فخماً يضارع مقابر البطارقة ؛ لأن (ليسينوس) لم يفكر طول اشتغاله بحرفته فى أن يكون وزيراً ، أو كاتماً لأسرار إمبراطوره .

والمعلم حنا حكيم ، وإن شئت فقل الأوسطى حنا حكيم - وإن لم تتبرك يداه بلمس لحية شريفة ، مثل لحية القديس بولس ، ولم ينعم بعشرة مليك محب للفقراء ، مثل لويس الحادى عشر ، ولم يطمع فى أن يكون فى منصب الوزارة ، الذى بلغه (بطرس لابروس) - فإن المزايا المكتسبة التى حببته بها طبيعته الميالة إلى الفنون : يمكن أن ترفعه إلى مستوى يدنيه من عشرة العظماء ! فلقد حظى (شكسبير) بمقابلة (اليصابات) فى بلاطها الأنيق ، ولما تمض سنوات على قيادته الخيول على أبواب المسارح .

والأوسطى حنا حكيم، وإن كان العصر الجديد قد خلفه فى منتهى ما وصل إليه التأخر فى الحرفة ، فإنه رغم عدم اعترافه بالترقى المفروض على كل فرد فى صناعته ؛ كأنه لشدة

هوايته للتمثيل : والأدب ، والشعر ، وشغفه باقتناء الكتب،وكن من أركان الثقافة فى موطن قديم للشعر ، والحماسة ، والتظرف،هو «أنطاكية» التى أنجبت (فريجيا) و (سزورازوس)، وأطلق فيها اسم المسيحية لأول مرة على حواريى يسوع .

وفى الواقع لا يكاد يجرى حادث يتعلق بالتمثيل أو الأدب إلا كان نبأه عند الأسطى حنا حكيم ، وكان حانوته مصدر القول الفصل فيه، وهو على قدر ما يسخر من الحياة والناس أحياناً ، ويزدرى حرفته إلى جانب الفنون والآداب التى يهواها ، يأبى إلا أن يجعل زعامته مقترنة بفرض معترف به من جميع هواة الشعر والتمثيل فى « أنطاكية » ، وهو ألا يسلموا رءوسهم إلى حلاق غيره ، وأن يكون حانوته مجلسهم وناديهم ، وقد صار بهذا الاعتبار كأنه شيخ أهل الأدب والفنون ، وإن لم يكن شيخ الحلاقين !

ونعتقد لو أن (أوليفيه القزم) سأل مليكه المحب للعامة ، أن يحقق له أمنية ما طلب شيئاً أكثر من أن يكون ملكاً للرعاع ! ولكن مثل الأوسطى حنا حكيم كان يطلب بلا شك أن يكون ملكاً لأرباب التمثيل .

ولعل المزاج الخاص الذى جعل الأوسطى حنا حكيم عمدة فى فن التمثيل ، ولم يجعله أستاذاً فى حرفة الحلاقة ، حال بينه وبين جادة الترقى فى صناعته ، فبقى حانوته من بعد عشرين سنة مضت على عهدنا به فى ذيل حوانيت الحلاقين ؛ لم يستحدث فيه شىء ، كأنما أصابته حرفة الأدب ؛ ورغم هذا التأخر غير الاختيارى ـ الذى جعل حانوت الأوسطى حنا حكيم فى أخريات الحوانيت بلا تجديد ولا أناقة ـ فلم يكن فى « أنطاكية » نادى مثل ناديه يضم هواة التمثيل والأدب فى شبه (أكاديمية) صغيرة ، يتزعمها رجل طويل القامة ، أبيض الوجه ، عصبى المزاج ، هو الأوسطى حنا حكيم !

ونذكر أن بعض الحلاقين دعى يوماً إلى الامبراطور (أركايوس) ، فسأله عن الطريقة التى يختارها لحلق لحيته ، فأجاب الامبراطور : « طريقة الصمت » ؛ فإن مزاج الحلاق فى إذاعة الأخبار صيره مثلا فى الثرثرة ، ولذلك كان الأوسطى حنا حكيم لشدة ميله إلى التمثيل ورواية الشعر حلاقاً ، لا ينبغى أن يعفى من أداء القسم قبل أن يتسلم رأس « زبونه » ؛ فهو لم يألف أن يقول لزبائنه من هواة الأدب « آليت ألا أتكلم حتى أنتهى من مهمتى .. » ، وإنما يبلغ من جنونه بالتمثيل أحياناً أن يترك اللحية ؛ أو الرأس نصف حليقة ، ويفاصل فى إنشاد أو تمثيل ساعات طويلة ناسياً مهمته الحقيقية ، إلى جانب ما يتوقعه ـ خطأ ـ من إدخال السرور على زبائنه ، وهو من أجل ذلك يختارهم ممن يشاركونه هواية التمثيل والشعر .

وربما أدرك البعض من إهمال الأوسطى حنا حكيم مسألة التجديد والتحسى مع ضرورات

العصر ـ في حرفة هي رأس التظرف والزينة ـ أنه رجل غير أنيق ، أو مشوش الهندام ، فإننا نؤكد أنه إذا كان قد أصابته ـ كما يقال ـ حرفة الأدب في جوهر صناعته ، فخلفها مجردة من مستحدثات العصر ، فهو يعد الرجل الأنيق اللباس الذي جعل عنايته بظرف هندامه : وجمال مظهره في مستوى عنايته بالتمثيل .

أما روحه الساخرة : وخفة طبعه ، وميله الجم إلى المجون ودقة تمثيله للحركات : وذوقه في إصدار النادرة ، فقد تكون في مزاج كل حلاق ، ولكنها صفة ممتازة في الأوسطى حنا حكيم .

وقد بلغ من تأثير هذه الصفة الممتازة في حلاق « أنطاكية » أنه أورثها أولاده .

ونذكر أن (جيوتو) كان من الرعاة ، ولكنه خلق التصوير بالألوان ، ولم يكن هذا الابتكار ضرباً من ضروب العبث ، فلا بد أن (جيوتو) تتلمذ على مصور كبير هبط الريف الذي عاش فيه من قبل أن يصل إلى اختراعه ، كذلك وفق الأوسطى حنا حكيم ـ وهو طالب في المدرسة ـ إلى الأستاذ الذي يتلقى عنه حب الفن ، ذلك هو الأستاذ (سليم قرنفل) الذي قام بنصيب وافر في النهضة الأدبية بأنطاكية ، ولقد يذكره الأنطاكيون بهذا الفضل الذي جعل من الأوسطى حنا حكيم ممثلا وزعيماً لنهضة فنية ، مركزها حانوت حلاق !

ولكن ! ألم يكن أفلاطون الحكيم يبيع الزيتون في سوق مصر ويشتغل بالفلسفة ؟ أو لم يكن شكسبير يمسك أعنة الخيل مأجوراً على أعتاب المسارح ؟

على أن حرفة الحلاقة التي رفعها (لابروس) إلى درجة الوزارة وألبسها (فيغارو) ، أو إذا شئت (بومارشيه) ، حلة مذهبة من الذكاء والفكاهة وخفة الروح ، فإنها ممثلة في الأوسطى حنا حكيم وسيلة ثانوية للحياة ، فقد كان حلاق أنطاكية ممن يدينون بمذهب عبادة الفن للفن ، فليس عجيباً أن يجعل الحلاقة في مرتبة ثانوية ، رغم أنها مصدر عيشه !

نقولا شكري

أيها المشــــــترك !!

إن « المعرفة » تفخر كل الفخر ، بأنها مجلة المثقفين والعلماء ، وبأن مشتركيها من خاصة العلماء والأدباء في جميع أنحاء الشرق العربي .

لذلك يهمها أن تحافظ على سمعتهم الأدبية من اتهامهم بعدم تقدير المشاق الصحفية ، وما تبذل في سبيل « المعرفة » من مال وجهد .

فهل أديت واجبك نحوها ؟ وهل سددت اشتراكك ؟ تذكر قليلا ، وتفضل مشكوراً بتسديد ما عليك إن لم تكن سددته .